عبقرية الإنسان

لحن ثائر وطبيعة منحرفة !

للأستاذ زكريا إبراهيم

شعلة متوهجة تقدح الشرر ، ولهب حار تتراقص فيه النيران ، وسيل جارف تتدفق منه الأمواه : تلك هي ملحمة نيتشه الفلسفية الرائعة !

إنها شعر دافئ ينبض بالحياة ، ولحن ثائر يزخر بالقوة ، وموسيقى صاخبة تفيض بالنشوة . . . هي فلسفة حية نبعت من قلب الوجود ، وسرت في دماء صاحبها حارة فائرة ، ثم تدفقت على لسانه عاصفة هوجاء تهدر وتزفر ! ولكنها فلسفة قد شاقها الأفق البعيد ، واستهواها النجم القصي ، فلما حلقت بجناحيها كالنسر في أجواز الفضاء ، وأشرفت على الوجود من قبة السماء ، لعبت برأسها نشوة العلو ، فتضاءل الوجود في عينيها المشدوهتين ، وتصاغر الكل تحت جناحيها المنشورين !

... أجل ، إن في شعر نيتشه سحراً غريباً يستأثر بالخيال ؛ فإن الصور والمشاهد تتابع فيه كالرؤى والأحلام ، والنفس تنتقل معه كأنما هي في رحلة رومانتيكية رائعة في بلاد ساحرة فاتنة : تمر بها المشاهد الأليمة المرعبة ، بعد المشاهد السارة البهجة ، ويطوف بها الغريب المضحك ، بعد الجليل الرائع ؛ ولكن الأمر الوحيد الذي يفسد على الإنسان كل ما في نيتشه من الجوانب الوجدانية المستحبة ، ويدفعه إلى النفور منه والعزوف عنه ، هو تلك الكبرياء المتعالية التي اصطبغت بها فلسفته ، وذلك الغرور المتطرف الذي اتسمت به أحكامه ...

كان نيتشه يعتقد أنه نسيج وحده ، ولذلك فقد اتخذ في كل مؤلفاته موقف فاوست المتمرد ذي النزعة الرومانتيكية ، وثار معه على كل قانون ، وكل أخلاق ، وكل حياة اجتماعية . ولما تضخمت عنده شخصيته ، أصبح ينظر إلى ذاته على أنها مركز للعالم كله ، لا بل أستغفر الله ، على أنها تستوعب العالم كله وتضمه تحتها ! فإذا قال نيتشه بفكرة ، فقد وجب ألا يكون أحد قد سبقه إلى تلك الفكرة ؛ وإذا أصدر نيتشه حكما ، فلا بد أن يكون هذا الحكم صحيحاً ، ولو أجمعت الإنسانية كلها على أنه غير صحيح ! . . . لقد عاشت الإنسانية على قيم فاسدة وشرائع كاذبة ، فلا بد من أن يأتي نيتشه بلوحة جديدة للقيم يقضي بها على كل تلك الأوهام والخرافات التي ظلت الإنسانية تحرق لها البخور طوال حياتها ! أليس نيتشه هو مسيح العصر الحديث الذي اعتقد في نفسه أنه أعظم رجل أنجبه عصره ؟ ألم يقل نيتشه إن الثورة الفلسفية التي سوف تحدثها آراؤه ، ستكون نقطة البدء لانقلاب هائل يحل بالإنسانية كلها ؟ ألم يعتقد نيتشه أنه حطم شريعة المسيحية ووضع حداً لقيمها الكاذبة ومعاييرها الخاطئة ؟ إذن فليس من حرج عليه إذا قال بملء شدقيه : «إن الناس تخطىء الحساب ، إذ تعتبر بداية التاريخ ، ذلك اليوم المشئوم الذي بدأت به المسيحية . أجل ، لماذا لا تكون بداية التاريخ هي نهاية المسيحية ؟ إذن فلنحسب القرون والأجيال ، ابتداء من اليوم ، فإن يومنا هذا هو يوم تحول مطلق للقيم والمعايير كلها » !

هكذا قال صاحب لوحة العهد الجديد ، الذي آمن بالأرستقراطية المتطرفة ، وانتهى به غروره إلى قمة الجنون الباردة . وليس بدعاً أن يعتقد نيتشه في نفسه أنه مسيح العهد الجديد ، فقد خيل إليه أن شريعة المسيح قد تهدمت على يديه ، وأن عليه هو أن يقدم للانسانية شرعة جديدة يقيم بها بناء القيم من جديد ! وقد قارن نيتشه بين نفسه وبين المسيح ، وقدم نفسه في كتابه : «ها هو ذا الإنسان !» Ecco Homo : باعتبار أنه المسيح الجديد ! وحينما كان الجنون قد أخذ يتسلل إليه ، تراه يوقع خطابه الأخير إلى « براندس » بإمضاء « المصلوب » ! Le Crucifié ، وليس من عجب أن يعتقد نيتشه ذلك في نفسه ، فقد توهم أن العمل الذي قام به في عالم الأخلاق والفلسفة ، عمل فريد لم ينهض به أحد من قبل ... وأما مؤلفاته فقد اعتبرها من قبيل ذلك الوحي الذي يجيء به الأنبياء المرسلون ، وإن كانت تختلف عنه في أنها وحي صادق لم تموهه الأكاذيب والأساطير ! وتبعاً لذلك فقد تحدث نيتشة عن كل كتاب من كتبه ، باعتباره حدثاً هاماً بالنسبة إلى العالم كله ؛ ووسم واحداً من هذه

الكتب باسم « الفجر » ، ظناً منه أنه هو فجر اليوم الجديد الذى طلع على العالم بأسره !

وحينما نظر نيتشه إلى عالم القيم Valeurs ، ألفى أن النقد السائد فيه نقدٌ زائف بهرج ، فأعلن بقوة وحماسة أن الوقت قد حان لتغيير مادة ذلك النقد وصورته معاً ... أجل ، إن الإنسانية قد أخطأت حتى الآن فى كل قيم الحياة التى اتخذتها لنفسها ، فلا بدَّ من أن يأتى مشرِّع هذا العصر ، فيقدم لها صورة صادقة للحياة الوحيدة التى يمكن أن تكون جديرة بأن يتحمل المرء فى سبيلها مرارة العيش ! وقد نادى نيتشه بقيم الحياة الجديدة ، ثم هتف فى نشوة وسرور : « إن آلاف الأجيال القادمة لن تُقْسِم إلا باسمى » !

وتضخَّمَتْ فى نفس نيتشه عاطفة الأرستقراطية ، فلم يلبث شعوره بنفسه أن تزايد ، حتى استحال إلى شعور مريض غير طبيعى . وليس أدلَّ على انحراف نفسيته فى هذا الصدد ، من أنه كان يعتقد أنه ينتسب إلى سلالة نبيلة من جنس سلافى ، كأن السلافيين جنس راق ليس أنبل منه ، وكأنما هو سلافىٌّ أصيلٌ حقاً ! — فهذا الألمانى الذى تجرى فى عروقه دماء جرمانية خالصة ، كان يفخر طَوال حياته بأنه ينحدر من أصل بولونى عريق ، هو آل نيتسكى Nietzky ؛ على حين أن أخته نفسها قد ذكرت أنه ليس فى عروقه قطرة واحدة من الدم البولندى ! وهذا الإبن الذى أنجبه قسِّيس ألمانى من مقاطعة بروسية ، كان يتوهَّم دائماً أنه ليس بألمانى ! وقد كوَّن عنده ذلك الأصل البولونى المزعوم فكرة متسلطة idée fixe سيطرت على نفسه وكان لها تأثير كبير فى حياته ، حتى لقد أصبح يخضع لها فى كل تفكيره وعمله

ولما كان النبيل البولندى — فيما يروى نيتشه — يفصل فى الحكم الذى يُصْدره مجلس بأكمله ، فيحكم عليه بجرة قلم واحدة أنه منقوض أو ملغى ، وبذلك ينسخ حكم ذلك المجلس بكلمة واحدة ، فقد شاء نيتشه أيضاً أن يقضى على كل ما حكمت به الإنسانية مثل هذا القضاء ، ومن ثم فقد تقدم فى بطولة وإقدام ، وكتب تحت كل ما قضت به الإنسانية حتى الآن : « منقوض » ! ونحن نعلم أن كوبرنيكوس كان بولونياً ؛ وقد غير كوبرنيكوس نظام الكون ، فلا بد أيضاً من أن يقلب نيتشه نظام الأفكار والمعايير رأساً على عقب ، ولا بُدَّ من أن يجعل الإنسانية تدور حول محور مما كانت تحتقره وترذله — وإذا كان شوبان Chopin البولندى (وهو فى الحقيقة فرنسى أيضاً بحكم أن أباه كان فرنسياً) قد حرَّر الموسيقى من التأثيرات الألمانية ، Antéchrist فإن نيتشة لا بد أيضاً أن يحرر الفلسفة من هذه التأثيرات الألمانية ! ولكن كل ما فعله نيتشة فى الواقع هو أنه عدَّل فلسفة شوبنهور واتجه بها اتجاهاً خاصاً ؛ فلم يتجه بإرادة الحياة اتجاهاً تشاؤمياً ، ولم يَلْقَ ضروب التغير وما يجىء معها من ألوان الألم المختلفة بكلمة « لا » (كما فعل شوبنهور) بل اتجه بإرادة الحياة اتجاهاً تفاؤلياً ، وتقبَّل كل ما يجىء به التغير من ضروب الألم . أما الذى جعله يعتقد أنه قد اتجه بالفلسفة اتجاهاً جديداً خالصاً ، فهو ميله إلى اعتبار نفسه رائد الإنسانية الأول ! فإن نيتشة حينما كان ينتج فكرة من الأفكار ، كان يتوهم أن أحداً قبله لم يسبقه إلى تصور تلك الفكرة ؛ ومن أجل ذلك فإن كل عبارة من عباراته ، وكل قول من أقواله ، يرن فى السمع كأنه كلمة الخالق : « ليكن نور » ! Fiat lux ، أى كأنما هو يستخرج عالماً من العدم !

وعلى الرغم من أن نيتشه قد انتقض على الفلاسفة الألمانيين جميعاً ، فإنه قد اعتقد بمثل ما اعتقد به هؤلاء « ابتداء من هيجل حتى شوبنهور » وهو أن ليس فى استطاعة أحد غيره أن يفهمه ! وفى كتابه « عدو المسيح » tudesques نجده يذكر أن اليوم الذى سيكون ملكاً له إنما هو اليوم الذى يتلو الغد ... « إن هناك أناساً يولدون بعد موتهم ؛ وأنا أعرف جيداً ما هى الشروط التى لا بدَّ منها ، لكى يفهمنى الناس : آذان جديدة تستطيع أن تتسمَّع الموسيقى الجديدة ... أعين جديدة تستطيع أن تستشف الأشياء البعيدة . شعورٌ جديد يستطيع أن يتقبَّل الحقائق التى ظلت صامتة خرساء حتى الآن . إن من يتهيأ لهم هذا كله ، هم وحدهم قرائى ، قرائى الحقيقيون ، المقدَّرون لى منذ الأزل ؛ فماذا يعنينى عن الباقين ؟ إن الباقين هم الإنسانية (أو العامة : فالمعنى واحد) ؛ ولا بد أن نسمو على الإنسانية فى القوة ، ورقعة النفس ، والقدرة على الاحتقار » !